

التحول الرقمي في الجامعة: كيف توسّع المكتبة دورها؟

خافيير لييفا أغيليرا



المخلص:

يناقش المقال التحول الرقمي في الجامعة بوصفه دمجًا للتقنية والموارد في العمل والتعلم والبحث والاتصال، يتجاوز تحويل الورق إلى ملفات، ويركز على فرص تغيير العملية التعليمية وتوسيع التعلم المستمر وتطوير دور المعلم والمشاركة في عالم متصل. ثم يعرض إمكانيات المكتبة الجامعية في قيادة التحول أو دعمه، من خلال تدريب المجتمع على أدوات متنوعة، ومساندة نشر المحتوى والخبرات، والمشاركة في إدارة الموارد والمنصات والعروض التعليمية، ويؤكد الحاجة إلى اختيار التقنية والمنهجية المناسبين وإدماجهما في الممارسة اليومية، بدل الاكتفاء باقتناء الأدوات، ويقدم الأفكار بوصفها تأملًا مفتوحًا للتطوير بحسب التجارب المؤسسية، مع إبقاء مؤشرات الانتشار والأمثلة في سياق المصدر التاريخي، ودعوة المكتبات إلى توسيع نطاق مساهمتها الأكاديمية.

الكلمات المفتاحية: التحول الرقمي، المكتبات الجامعية، التعلم الرقمي، التدريب، نشر المحتوى

1. من الرقمنة إلى التحول الرقمي:

يستحضر مصطلح الرقمنة في عالم المكتبات تحويل الكتب من وسيط تقليدي إلى رقمي، لكنه يُستخدم حديثًا في الشركات للدلالة على دمج التقنية في الإدارة والعمليات والخدمات وغيرها. وفي الجامعات يشير منذ سنوات إلى دمج الأدوات والموارد الرقمية من منظورات منها: الإدارة والتسيير الأكاديمي؛ وصيغ البرامج من الحضوري إلى المدمج أو الإلكتروني؛ والتعريف بالعروض والأنشطة؛ والأنشطة البحثية؛ ودمج الأدوات والموارد في التعلم.

لكن الحديث يتحول من الرقمنة إلى التحول الرقمي، وهذا مناسب؛ فالتقنية ينبغي أن تندمج في الحياة اليومية للمؤسسة لتحسينها، لا لمجرد الانتقال من الورق إلى الرقمي بغرض الحفظ. وتعني مرحلة التحول أن الاستخدامات الرقمية تتيح بذاتها أنواعًا جديدة من الابتكار والإبداع في مجال معين، بدل مجرد تعزيز الطرق التقليدية ودعمها (Lankshear; Knobel, 2008). ويزداد حضور الموضوع في متدنيات الشركات والصحافة؛ فالبحث عنه في يناير

2016 يعطي 414 نتيجة في قاعدة (MyNewsOnline)، مقابل 68 في الشهر نفسه من 2015، و21 فقط في 2014. وأرى أهمية طرحه منطلقاً للتفكير في ملائمة التحول للجامعات ودور مكباتها فيه. ولضخامة الموضوع سأقتصر على آخر بنود القائمة السابقة: دمج الأدوات والموارد الرقمية في التعلم.

2. أهمية التحول الرقمي للجامعة:

الحاجة إليه واضحة، وهو فرصة وواجب معاً. فالعالم الرقمي، وخاصة الإنترنت الذي ينظم أنشطة بشرية كثيرة، يقودنا إليه دون رجعة. نستخدم التقنية للاتصال والمعلومات والاستهلاك واللعب والمعاملات والتعلم. وقد فقد التعلم النظامي كثيراً من حضوره أمام غير النظامي؛ فالويب غني بمحتويات تلبية حاجات تعليمية متعددة، ومتاحة غالباً بسهولة ومجاناً. وحتى في الجامعة يتقدم الواقع الجديد سريعاً. أيام المحاضرة الإلقائية معدودة، لأنها لم تعد تتصل بالطالب الذي يعرف أساليب أجدى، ويحضر بهاتف أو جهاز لوحي أو حاسوب متصل يستطيع به إيجاد المعلومة ومساءلة ما ينقله المعلم، والامتناع عن التحول يعرض المؤسسة لخطر الاختفاء. فلننظر إلى العلاقة اليومية بالتقنية: كم شخصاً يبحث عن عنوان في خريطة ورقية بدل تشغيل (Google Maps) أو نظيرها؟ قليلون غالباً. ومثل ذلك (WhatsApp) و (Telegram) بدل المكالمات، وحجز الرحلات إلكترونياً بدل الوكالة، وويكيبيديا بدل (Espasa) التي صدر آخر ملحق لها في 2012. صارت العلاقة بالتقنية طبيعية ومستمرة، ومنها التعلم. ومع تكيف بعض الجامعات، يصعب على الجامعات الأخرى منافستها دون أن تتكيف هي أيضاً: من يلتحق بمؤسسات عالقة في عروض وأساليب وأدوات الماضي؟ كما أن التحول فرصة لا يجوز تفويتها: سهولة الوصول للمعلومات تنقل مركز التعلم وتتيح للمعلم منهجيات أنسب، وتحوله من ناقل إلى مرشد وميسر يعد مواطنين أقدر وأكثر نفعاً. وكانت الحياة قديماً تفصل مرحلة الدراسة عن المهنة؛ أما الآن فتلاشت الحدود ويحتاج المرء، ويرغب أحياناً ولو لم يحتج، إلى التعلم مدى الحياة، فتستطيع الجامعة توسيع عروضها لتلبية ذلك. وتستفيد الجامعات الصغيرة أو البعيدة من العالم المتصل، إذ يصبح التدويل أيسر فجأة.

يقتضي ذلك تغيير طريقة تناول العملية التعليمية. ويتضمن التحدي دمج التقنية والموارد الرقمية في التدريس لتحسينه على كل المستويات وبأي صيغة، مع اختيار الأنسب لكل حالة؛ وأن يصبح الدمج جزءاً أصيلاً من التعلم. كما يجب إعادة التفكير في العملية نفسها باستخدام منهجيات يتزايد انتشارها ونجاحها عالمياً: التعلم القائم على المشكلات، والتعلم المقلوب، والعمل القائم على مجتمعات الممارسة وغيرها.

3. دور المكتبة الجامعية:

ينبغي أن ترى التحول فرصة كبيرة، فتتجاوز التكيف مع أشكال المعلومات والبحث والوصول الجديدة إلى توسيع نطاق عملها وتولي دور رئيسي. ورغم خطوات معظم الجامعات نحو التحول، فالقليل تبناه هدفاً استراتيجياً يستحق إنشاء وحدة تقود المؤسسة كلها نحوه. ولعل المكتبة تستطيع التقدم لقيادة العملية. لا أراه مناسباً فقط، بل سيضعها في موضع مركزي، تملكه في بعض المؤسسات وينبغي نظرياً أن تملكه جميعاً، لكنها كثيراً ما تفتقده فعلياً.

وإلى جانب هذا الدور القيادي، توجد مجالات أكثر تحدياً:

التدريب والدعم:

يرتبط الوضع الجديد بحاجات كثيرة؛ فالأدوات والموارد الرقمية الأكثر تنوعًا والمنهجيات التي توظف التقنية تلزمنا بالاستجابة لحاجات المعلمين والطلاب والباحثين والعاملين في الإدارة والخدمات. ويمكن التدريب حضورياً أو عن بُعد، ببرامج مخصصة أو حزم للتعليم الذاتي. لكن الحاجات تتجاوز كثيراً ما تقدمه المكتبة عادةً، مثل إدارة المراجع. ألا تستطيع التدريب على (Moodle) أو نظام إدارة التعلم الذي تستخدمه المؤسسة؟ وهذا أوضح مثال فقط، فالقائمة تشمل التصويت في القاعة والمؤتمرات المرئية ورسم الخرائط المفاهيمية والأعمال المكتبية التعاونية وغيرها.

نشر المحتوى:

تتيح الإنترنت لأي شخص النشر؛ واستثمار ذلك جامعياً قد يحقق نقلة نوعية. ماذا لو شارك المعلمون الموارد والخبرات والأنشطة علناً؟ ولو حافظ الطلاب على سجل مفتوح لتعلمهم؟ تستطيع المكتبة قيادة ذلك باستراتيجية وأدوات متاحة للمجتمع ومواكبة المشاركين بالدعم والتدريب.

الإدارة:

لا تظهر منهجيات جديدة فقط، بل وسائط وصيغ جديدة؛ فقد شاعت مثلاً المقررات المفتوحة واسعة الالتحاق (MOOCs). وقد تسهم المكتبة في ضمان جودتها وإدارة إتاحتها ومتابعة العمل على المنصات التي تستضيفها أو إدارته. هذه ملاحظات وأفكار تكملها مساهمات الآخرين ومرور الوقت والخبرات الجامعية الجديدة. ولذلك يبقى النص مفتوحاً للإثراء حالياً ومستقبلاً ممن يريد مواصلته.

المراجع:

- MyNewsOnline. البحث عن «transformación digital»، يناير 2016. <http://www.mynews.es>
- Lankshear, Colin; Knobel, Michele (2008). Digital literacies: concepts, policies and practices. New York: Peter Lang Publishing. ISBN: 978 1 4331 0169 4